

غازي زعتري
خطاب عميد كلية الطب في حفل التخرج
٤ حزيران ٢٠٢١

نفتخر بك أيتها الجامعة الأميركية في بيروت. نستمدّ منك القوة والشجاعة. هذه اللازمة قد تعتبر أمراً مفروغاً منه أثناء غناء نشيد الجامعة، لكنني أتساءل كم عدد الذين توقّفوا للتفكير في الرسالة القوية التي تحملها هذه الكلمات. كلمات هي بطبيعتها رافعة للمعنويات وكانت مصدر فخر لجميع الخريجين في جميع الأعمار ولكن تحت ضغوط اليوم، فإنها تحمل تأثيراً أقوى.

إن السعي وراء الحقيقة قد حير حضارات وأدياناً وثقافات وفلاسفة وكتّاباً وأفراداً. واختلفت مساراتهم المقترحة ولكنها كلها تقريباً تلاقحت حول فكرة واحدة وهي أن هذا السعي هو رحلة تستمر مدى الحياة وتنضج مع مرور الوقت إلى الحد الذي يكون فيه الفرد على استعداد لإنضاجها. جلال الدين الرومي أدرك التحدي الكبير الذي يواجهه هذا المسار؛ وقال بتبصّر وذكاء "الحقيقة كانت مرآة في يدي الله. سقطت وتهشمت أشلاء. كلُّ أخذ قطعة ونظر فيها، واعتقد أن لديه الحقيقة". هذا يعكس الصراع المدمر الذي يمزق بلدنا الحبيب اليوم. يقول كل طرف أنه يمتلك الحقيقة ولكن الحقيقة الجماعية الصحيحة لا تزال بعيدة المنال بسبب طمس الرؤية. ويقول الرومي "بالأمس كنت ذكياً، لذا أربت تغيير العالم. اليوم أنا حكيم، لذلك أغير نفسي." قبل قرون، توصّل بوذا إلى الاستنتاج ذاته، "الرجل الذي يسيطر على نفسه هو أكبر من الرجل الذي يقهر ألف رجل في المعركة." لذلك، اذ تستعدون للقيام بهذه الرحلة التي تدوم العمر كله، اعلنوا استعدادكم للبدء بتغيير نفسكم واسقاط الحواجز المعيقة من أجل تأمين الهدوء الداخلي المفرح. نحن، كمعالجين متنبئين لمهمة الحد من المعاناة البشرية، تحمل مهنتنا، حبوراً لا مثيل له في أي مهنة أخرى، في تحقيق، الهدف النهائي لوائم العقل والروح وبطريقة مذهشة. أيمن لأحدكم تصوّر شعور أكثر إفراحاً للنفس من إجراء تشخيص دقيق أو توفير علاج ملائم أو تحقيق اختراق علمي يساهم في استعادة الصحة الجيدة أو انقاذ حياة أُنو تمكين تقدّم علمي؟ وتمضون قدماً في هذا المسار، للعثور على معارف جديدة مع عقل منفتح وناقد، لاستكشاف آفاق جديدة بحماس وبحكمة متمحصّة، للحصول على إشباع حقيقي لذواتكم ولكثيرين، من دون استعلاء بل بقلب محب مكرث وعقل متبصّر.

والآن أنتقل إلى الشجاعة التي نعرف بأنها القوة العقلية أو النفسية لمواجهة الخطر أو الخوف أو الصعوبات. ما شهدناه خلال العام الماضي، أي جائحة كوفيد-١٩، والانفجار الكارثي في مرفأ بيروت، وانهيار الاقتصاد والسقوط المتواصل للنظام النقدي في البلاد، شكّل مخاوف لا مثيل لها باستثناء تلك التي شهدناها في جبهات المعركة المفتوحة التقليدية. الشجاعة هي ببساطة التغلّب على مثل هذه المخاوف في تصرفك إزاءها. نيلسون مانديلا عبّر عن ذلك ببلاغة في وصف تجربته الشخصية في مكافحة الفصل العنصري: "تعلمت أن الشجاعة لم تكن غياب الخوف بل الانتصار عليه. الشجاع ليس من لا يشعر بالخوف، بل هو الذي يقهر ذلك الخوف". الوفيات المنتشرة بسبب جائحة كوفيد-19 أحييت الذكريات القبيحة لوباء الموت الأسود الذي دمر العالم منذ قرون. تجربتنا المحلية مع كوفيد-١٩ كانت مرعبة ولكن هنا مرة أخرى يدوّن التاريخ شجاعة رجل ونساء مثلكم، أبطال متقانون تصدّوا للجائحة والتزموا بقسم أبقراط ولم يهربوا من مواجهتها. تجربة الخمسة عشر شهراً الماضية تجعلكم كوكبة فريدة من الخريجين ستحمل هذه التجربة مدى العمر.

غدا سوف تعيشون تجربة حياتية جديدة. تسلحوا بالصفات السبع التالية من الجراءة:

- ١- قفوا دائماً مع الحق، حتى لو وقفتم لوحكم. كورنيليوس فان دايك، أحد الآباء المؤسسين للدائرة الطبية في الكلية السورية الانجيلية، ترك الكلية في العام احتجاجاً على قرار مجلس المديرين بإنهاء عمل أستاذ لتجروءه على ١٨٨٢ طرح نظرية داروين الجديدة للتطور في الحرم الجامعي. إن حجب المعارف الجديدة ومنع حرية التعبير الأكاديمية لمناقشة مبدأ مبتكر كان أمراً غير مقبول على الإطلاق لفان دايك، ذلك المبشر الإنجيلي المرموق جداً وأستاذ الطب الداخلي وعلم الأمراض الذي أمن بقوة بالعلم كمسار مشروع للتقدم.
- ٢- حافظوا على أخلاقياتكم الخاصة ولا تستسلموا لضغط الزملاء. اليوم نحن نعيش في عالم حيث القيم الاجتماعية والأخلاقية التي توجّه حياتنا ومهنتنا تشوّهت بسبب الإغراءات المادية والفساد.
- ٣- كونوا لطفاء في كل ما تفعلوه ولجميع من حولكم، والأسرة والأصدقاء والمرضى وزملاء العمل. رعاية المرضى تتطلب الصبر والرحمة والعطف.
- ٤- تحملوا مسؤولية حياتكم والقرارات التي تتخذونها. توقّفوا دورياً لتقييم أين أخطأتم وأين أصبتم. وهذا التقييم الذاتي مع المساءلة هو في الواقع دلالة على الشجاعة.
- ٥- اعرفوا متى ترفضون. تحلّوا بالشجاعة لإعلان ذلك ضد مشروع عمل غير مقنع، أو مهمة مثقلة بالأعباء، أو طلب من منافق أو ذئب يرتدي جلد حمل، أو حتى صداقة.
- ٦- اعرفوا متى تطلبوا المساعدة. إن ممارسة مهنة الطب والسعي إلى الاكتشاف العلمي يشكلان تحدياً كبيراً، لذا فإن طلب المساعدة، عند الضرورة، هو علامة على الشجاعة وليس على عدم الكفاءة أو عدم المهارة.
- ٧- تمسّكوا بأفكاركم وخططكم حتى النهاية. الشجاعة والصمود هي ضمانات تخطّي العقبات والحوادث.

وعلى الرغم من الأيام الكالحة التي نمرّ بها اليوم، أغتنم هذه الفرصة لأؤكد من جديد التزام كلية الطب وجميع أعضائها بالتعليم الطبي الجيّد والهادف لخدمة المجتمع بالطريقة ذاتها التي دأبت عليها الكلية منذ إنشائها في العام ١٨٦٧. وخلال تاريخها اللامع الطويل، لم تكن هذه المؤسسة غريبة عن الكوارث الخطيرة والصراعات والحروب، ودائماً في كل مرة خرجت من المحنة أقوى لتواصل مهمتها والسعي وراء الحقيقة.

ختاماً أقول؛ من الآن فصاعداً، وفي أي وقت تتذكّرون فيه نشيد جامعتنا الأم، فكروا للحظة إلى أي مدى كنتم صادقين مع أنفسكم، ومع الناس والأحباء من حولكم ومع المهنة التي توشكون على بدء خدمتها لبقية حياتكم، بشجاعة ومع السعي لتحقيق السعادة والرضى الذاتي والهدوء الداخلي. تهانينا لكم يا متخرجي العام ٢٠٢١.